Türkiye Diyanet Vakfı
Kütüphanesi
İslâm Ansiklopedisi

دراسات حول المدينة المنوّرة
(٢)

عارف حكمة

حياته ومآثره

أو

« شهيّ النّغم في ترجمة شيخ الإسلام عارف الحكم »

تأليف

شهاب الدّين أبي الثّناء محمود بن عبد الله الألوسيّ
١٢١٧ - ١٢٧٠ هـ

حقّق نصوصه وخرّج أحاديثه وعلّق عليه
الدكتور محمد العيد الخطراوي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

مؤسسة علوم القرآن
سوريا - دمشق - شارع مسلم البارودي - بناء خولي وصلاحي - ص.ب ٤٦٢٠ - تلفون ٢٢٥٨٧٧ - بيروت - ص.ب ١١٣/٥٢٨١

مكتبة دار التراث
المدينة المنورة - ص.ب ٢٨٨٥٢

مؤسسة علوم القرآن
دمشق - بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

الحمد لله الذي أنزل إلى عباده الكتاب ، والصلاة والسلام على رسوله محمد الذي اتخذ الكتّاب ، وعلى آله وأصحابه ذوي الألباب .

وبعد :

فقد خص الله المدينة المنورة ـ هذا البلد الطيب المبارك ـ بميزات كثيرة وفضائل شتى ، كان أعظمها جميعاً أنها مهاجر الرسول ﷺ ، ومنطلق دعوته ، ومحتضن رفاته ، وأنها ملتجأ المؤمنين ومأرز الإيمان ، حين تختل الموازين ويسود الكفر ويغلب على الكون الشيطان .

ومن مميزاتها الكبرى أيضاً أن فيها اكتمل نزول القرآن الكريم الذي هو أعظم كتاب ، وتم جمعه وتدوينه في صورة متكاملة في عهد أبي بكر رضي الله تعالى عنه ، على يد لجنة من كبار الصحابة الحفاظ ، أحكمت جمعه وتدوينه وتثبتت من صحة أصوله وصدق مصادره ، ثم أودعته بيت أم المؤمنين حفصة رضي الله تعالى عنها ، فكان بيتها بذلك أول مكتبة للمخطوطات المصحفية بالذات ، وللمخطوطات بصفة عامة ، في الإسلام .

ثم جاء عثمان رضي الله تعالى عنه ، فرجع إلى تلك المكتبة العامرة ، واستخرج منها ذلك المخطوط الفرد ، وأوكل إلى لجنة أخرى من كبار الحفاظ أن

تتتبّع آيات القرآن ، وتستخرج من هذا المصحف الفرد وفق قواعد ارتضتها الجماعة الإسلامية مجموعةً من المصاحف الهادية للأمة ، تنقذها من اضطرابها ، وتقيها الانزلاق في مهاوي الضياع والضلال ، فكان المصحف الإمام الذي استنسخت منه بعد ذلك كل نسخ القرآن . وكانت المدينة بذلك أول بلد تقوم فيه حركة نشر لكتاب في العالم الإسلامي ، وليس من المصادفة أن يكون أول عهد الأمة الإسلامية بالنشر هو القرآن ، وأن يكون مكان نشره المدينة المنورة ، فإن القرآن هو دستور هذه الأمة ، ومعتمد دنياها وآخرتها ، والمدينة هي مهاجر رسولها الكريم ، وهي الأرض التي ضمت رفاته ، ولثمت آخر أنفاسه ، وعقدت أجفانها على نور وجهه ، وأسماعها على صوته الحبيب ، صلوات الله وسلامة عليه .

وللمدينة في الحقيقة أوليات ليس لها آخر ، قد يكون من أهمها بالإضافة إلى ماسبق ، انطلاقة أول صحف حديثية مدونة منها ، جمعها أميرها أبو بكر بن حزم الأنصاري ، بأمر من الخليفة عمر بن عبد العزيز ، وذلك خشية دروس السنة بموت رجالها وتناقص أعلامها من أهل المدينة من الصحابة ، والتابعين .

ولا غرابة ـ والحالة هذه ـ أن يلتفت إلى هذا المعنى ، أولو الأمر في هذا العهد السعودي الزاهر ، فينشئوا فيها مطبعة للمصحف في الآونة الأخيرة ، تقوم بطبع ملايين المصاحف ، وتوفرها بين يدي المسلمين في جميع أنحاء الأرض ، ويقيموا أيضاً مكتبة للمصحف غدت تضم بين جنباتها عدداً كبيراً من المصاحف النادرة ، من حيث القدم والخط ، والمقاييس والأحجام . بالإضافة إلى كليتي القرآن والحديث بالجامعة الإسلامية ، تانكم الكليتان اللتان ينهل من معينهما كل طالب علم هيأ الله له فيهما فرصة الدراسة ، ومنحه نعمة الانتفاع بما فيهما من علوم هذين الأصلين العظيمين .

وقد ظلت دار الهجرة على مدى التاريخ موئلاً للعلم والعلماء ، ومرتاداً لطلبة العلم الشرعي واللغوي والتاريخي والأدبي ، معتزة بأعلامها وأشياخها ،

زاخرة بيوتاتها ومساجدها ومدارسها وأربطتها بالمكتبات الخاصة والعامة ، كان آخرها في العهود القديمة مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمة رحمه الله ، التي تعد بحق من المكتبات الهامة في العالم الإسلامي ، بما تحويه من نفائس المخطوطات ، وكان آخرها في العصر الحديث مكتبة الملك عبد العزيز ، التي تقف الآن صرحاً شامخاً للمعرفة ، تشهد بمدى إيمان هذه الدولة ورجالاتها بالعلم ودوره الأكيد في بناء كيان الأمة ورسم معالم الحياة .

ونحن إذ نهتم اليوم بنشر هذا الكتاب : (شهيّ النغم) الذي يترجم لشيخ الإسلام[1] عارف حكمة ، فإنما نفعل ذلك اعترافاً بفضله ، وتخليداً لذكره ، واعتزازاً بهذا الأثر العلمي الخالد المتمثل في مكتبته التي أشرنا إليها ، والتي عم نفعها المسلمين . بالإضافة إلى أنه كان من قضاة المدينة الأعلام ، الذين حققوا العدل وأحسنوا السيرة وحازوا رضى الناس .

وقد مدحه أبناء المدينة المنورة في حياته على لسان شعرائهم ، بغرّ القصائد ، وجعلوا نثرهم لجيده قلائد ، ومن بين تلك القصائد ماأورده الألوسي في هذا الكتاب للشاعر محمد أمين الزللي ، وغيره ، ومما لم يذكره الألوسي من ذلك قول الشاعر المدني الآخر حسن أفندي بوسنوي مادحاً له ومؤرخاً عام توليته قضاء المدينة :

---

(١) يصلح لقب شيخ الإسلام في الحقيقة أن يصدق على كل عالم عامل من علماء المسلمين ، وبخاصة من كانت له آثار علمية أو إصلاحية ، كشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، ولكنه أصبح في العهد العثماني وظيفة رسمية بارزة من وظائف الدولة ، يعتبر صاحبها الشخصية الثالثة في الدولة تقريباً ، وقد تتابع عليها جماعة من العلماء منهم عارف حكمة . وهو المرجع الأعلى لجميع الأمور الدينية والشرعية . وأول من تولاها في الدولة العثمانية ابن كال باشا ، وذلك في عهد سليمان القانوني .

أمّن الـــدهر تـــائبـــاً ... والمنى رد آئبـــــــا
وعُقيب المطـــال بـــالـ ... ـــوعـــد أولَى المطـــالبـا
بـــانسجـــام لرحمـــة ... فيـــه سحّت سحـــائبـا
قـد همى الـوبـلُ سـاكبـا ... من حيـاهـا ، وسـائبـا
وكســا الروضَ ملبســا ... جـدّ للجـدب سـالبـا
فحـــوى منـــه منظرا ... جـالبَ الأنس جـاذبـا
كم فنـون بـــه غـــدت ... مثمرات مطـــائبـــا
وعلى عُـــوده شـــدا ... بلبـل اليُمن خـــاطبـا
والتهـــاني هـــزارهـــا ... قـــام يحكي مجـــاوبـا
رحمـةٌ صـاب جـودُهـا ... وسقى الكل صـــائبـا
هي من بحر (عـــارف) ... برّ فـــاضت مـــذانبـا
(عـــارف) عـــالم يرى ... بـــالمبـــادي العـواقبـا
وخبير حـــوى حجـــا ... أشطُرَ الـــدهر حـــالبـا
وجليـل جثـــا بـــه ... عـزّ جـاهـا وجـانبـا
بـــاسم الثغر ، وجهُـــه ... لم يكن قـــطّ قـــاطبـا
في سماء الهـــــدى سما ... بصفـــات كـــواكبـا
يـــالهـــا من ثـــواقب ... قـــد تسمت منـــاقبـا
في سنـــاء لهـــا سنى ... لاح يهـــدي المراقبـا
بعلـــوم طـــوالـــع ... ليس تلغى غـــواربـــا
ونـــوال خصـــوصـــه ... عمّ كـــلاّ مـــواهبـــا
لأيـــاديـــه واحـــةٌ ... عنـــك تمحـو المتـــاعبـا
لم يعُـــد قـــطّ ســـائـلاً ... لم يفـــده ، وطـــالبـا
ولـــه رتبـــة زهت ... وتســـامت مراتبـا
دونهـــا كل منصب ... لا يبـــاهي منـــاصبـا

فرع أصـــل نسيبـــه ... لم يفـــاخر منـــاسبـا
فـــاز رأس متـــوّج ... منـــه حـــاز العصـــائبـا
نعم عـــام بـــدا لنـــا ... كاسي الفضـــل كاسبـا
قـام بـالعـدل قـاضيـا ... فيـــه والجـورَ قـــاضبـا
طـــار تـــوقيـــع صيتـــه ... وتعلّى منـــاكبـــا
لم يـــدع من مشـــارق ... لم يجُبْ ، أو مغـــاربـــا
وكصبـح مـــديحُـــه الـ ... ـــعـذبُ يجلـو الغيـاهبـا
صـــادق فجرُ نـــوره ... لم يلـح قـــطُّ كاذبـا
صـــانـــه الله راعيـــاً ... جـــلّ ، في الله راغبـــا
لم يـــزل سهمُ حكمـــه ... في مراميـــه صـــائبـا
وبحســـنِ الأدا قضى ... فرضَ حـــق ، وواجبـــا
عـــام سعـــد عجيبُـــه ... قـــد أرانـــا العجـــائبـا
ولكَمْ من رغـــائب الْـ ... ـــخير أبـــدى غرائبـــا
جـــاء تـــاريخـــه كما ... عـــدّ من كان حـــاسبـا
ضمن بيت لـــه غـــدا ... حسنُ الـــودّ كاتبـــا
(عـــارف) العلم (أحمـــد) ... جـل بـــالشرع طـــائبـا
٣٥١ ١٧١ ٥٣ ٣٣ ٦٠٣ ١٤ =

١٢٣٩ هـ

كما مدحه هذا الشاعر بقصائد أخرى مثبتة في ديوانه المخطوط الذي شرعت منذ عهد قريب في العمل على تحقيقه ونشره .

وقد اعتمدت في نشر هذا الكتاب (شهيّ النغم) على نسخة واحدة صورتها من مكتبة الأوقاف العامة ببغداد ، وعليها ختم هذا نصه : وقف المكتبة النعمانية في المدرسة المرجانية ببغداد عام ١٣١٧ هـ ، كما كتب على ظاهرها أيضاً مانصه :

استكتبه الفقير نعمان ابن المصنف غفر الله لهما ، سنة ١٢٩٩ هـ .

وعدد الأوراق في هذه النسخة سبع وثمانون . اشتملت كل صفحة على تسعة عشر سطراً ، وهي مكتوبة بخط النسخ ، بقلم متولي زاده عبد الرحمن أفندي محمد محسن الدوري البغدادي سنة ١٢٩٩ هـ ، كما جاء موضحاً في آخرها .

أما عن صحة نسبة الكتاب لمؤلفه أبي الثناء الألوسي فهو أمر أشار إليه غير واحد من المؤلفين ، ولا يتطرق إليه الشك بحال ، ومما قاله عنه الدكتور عبد الله الجبوري في تعليقة له على (المسك الأذفر ص ٧٣) متضمنة التعريف بالشيخ عارف حكمة : ولأبي الثناء رسالة في ترجمته ، اسمها : (شهيّ النغم في ترجمة شيخ الإسلام ووليّ النعم ، ما زالت مخطوطة ، ومنها نسخة في مكتبة الأوقاف العامة ببغداد ، برقم : (٥٩٣٣) ، ونشر الأثري ملخصاً لها في مجلة (الزهراء م / ٢ ص ٤٣٠ ، ٤٧٤ ، ١٣٤٤ هـ) ، ثم نشره في مجلة المجمع العلمي العراقي ، (المجلد ١٩٥٠ م) .

والملاحظ أن رقم الكتاب الذي ذكره الجبوري هنا مخالف للرقم الذي ذكره هو نفسه للكتاب في فهرسه لمكتبة الأوقاف ، الجزء الرابع . كما أنه سماه هناك بشهيّ النغم في ترجمة شيخ الإسلام عارف الحكم ، وسماه هنا بشهي النغم في ترجمة شيخ الإسلام ووليّ النعم ، بينما الأول هو الصواب ، كما هو مثبت بظاهر النسخة المخطوطة ، ولعل الوهم جاءه هنا من قول حفيد المؤلف في المسك الأذفر : وألف رسالة في ترجمة شيخ الإسلام ووليّ النعم ، سماها إذ طرب السامعين بشهيّ النغم[1] . وكذلك سماه الأثري في أعلام العراق .

أما ما كتبه العلامة الأثري حول الكتاب فإنني لم أحظ بالاطلاع عليه ، وقد كتبت لسيادته بالعراق في هذا الشأن ، فأفادني بأنه لا يملك من ذلك غير نسخته

(١) المسك الأذفر ص ٧٧ .

الشخصية مما كتبه ، وأنه لا يعرف للكتاب غير نسخة مكتبة الأوقاف ، وشجعني على المضي في تحقيقه ، مما جعلني أطمئن أكثر إلى سلامة عملي وجدواه ، فإن الشيخ محمد بهجة الأثري متخصص في الأسرة الألوسية ، عليم بأخبارها ، وله عنها وعن أعلامها عدة مقالات ومؤلفات .

هذا وقد كان عملي في التحقيق على النحو التالي :

(١) بعد حصولي على المصورة قمت بتبييضها بعد التأكد من صحة ألفاظها وعباراتها ، وهي من هذه الناحية خالية من الطمس والخروم ، وتمثلت الصعوبة في وجود بعض التصحيفات ، وفي خفاء بعض الكلمات المكتوبة في الأصل بالحبر الأحمر ، حيث استعصى وضوحها في التصوير ، وفي تداخل حروف بعض الكلمات بسبب محاولة تأنق الكاتب في الخط ، إلا أنها صعوبات أحسب أنني وفقت في تذليلها والتغلب عليها .

(٢) صنعت لموضوعات الكتاب العنوانات الوسطية والجانبية المناسبة ، ووضعتها بين قوسين مركّنين ، للدلالة على أنها ليست من صلب الكتاب .

(٣) قمت بعزو الأحاديث والآيات ، وبشرح بعض الألفاظ الصعبة وبعض الأمثال التي استعملها المؤلف .

(٤) كما قمت بترجمة معظم الأعلام التي وردت بالكتاب ، وما تركته منها كان في الغالب بسبب شهرته أو بسبب عدم عثوري على ترجمة له فيما لديّ من مراجع ، ولعلي أسدّ هذا النقص في طبعة تالية للكتاب إن شاء الله ، على أن الأمر ـ فيما نحسب ـ هين في ذلك ، لأن هذا الكتاب ليس هو من كتب الحديث ، ولا مما يحتاج رجاله إلى التوثيق .

(٥) وضعت مقدمة للتحقيق عرفت فيها بالكتاب ، وبينت بواعث اهتمامي به ، كما عرفت بمؤلفه الألوسي ، وقدمت للقارئ نبذة عن مكتبة عارف حكمة بالمدينة ، اعتقاداً مني أن ذلك مما يكمل بعض النقص في الكتاب ، لأن